وحدانية اللَّه وتجليات أسمائه الحسنى

سؤال: كيف يقال إنه سبحانه في كل مكان مع أنه واحد أحد، أيمكنكم أن تبيّنوا لنا هذا؟

الجواب: نعم، الله تعالى واحد أحد، وهو أيضًا معكم أينما كنتم، لكن بعلمه وقدرته لا بذاته، ولا يلزم من هذا أنه تعالى يشغل حيزًا مكانيًّا كسائر الأجسام، فقولنا: إنه واحد أحد تعبير وإشارة إلى جلاله وعظَمته، ومعنى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ (سُورَةُ الْحَدِيدِ: ٤/٥٧) أنه موجود برحمانيته ورحيميته وبعلمه وقدرته في كل مكان. انظر مثلًا -ولله المثل الأعلى- إلى أشعّة الشمس تلامس رؤوسنا إلَّا أنها بعيدة عنا ولا نستطيع الوصول إليها، فالله تعالى بصفاته هذه هو بكلّ شيء محيط، وهو أقرب إلينا من حَبل الوريد إلَّا أنه لا يبلغه أحد ولا يحيط به شيء، فالله تعالى يقول: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (سُورَةُ ق: ١٦/٥٠).

إذًا فالله تعالى -وهو أقرب إليّ من حبل الوريد- حاكم ومسيطر في كل مكان بلا كمّ ولا كيف، فهو ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ٢٤/٨)، إذًا هو أقرب إلي من قلبي؛ فإن قلتُ بهذا المعنى: "إن الله في قلبي" فهذا صحيح؛ لأنه يعلم عني أكثر مما أعلم عن نفسي، وهو الفاعل المؤثر في كلّ شيء. ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ١٧/٨)، فالله تعالى هو الذي رمى في معركة بدر وفي غيرها من المعارك باسم الرسول ﷺ؛ فهو سبحانه موجود بقدرته في كل مكان كما دلّت عليه هذه الآية وغيرها ودلَّت أيضًا أن الله تعالى شهيد مسيطر في كل مكان بقدرته

وعلمه وبرحمانيته ورحيميته وبجماله وجلاله وبعلمه وإرادته وبسائر صفاته، وهو مع هذا واحد أحد، وهو ما أثبتته الحقائق الكونية؛ ولو كان هناك إلَهان -تعالى الله عن ذلك- لفسدت السماء والأرض، وبهذا نزل القرآن الكريم: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٢١/٢٢)؛ أي لتصادمت النجوم وانفجرت، وتصادمت الذرّات ببعضها، ولأدّت أشعّة الشمس في الأرض إلى سلسلة من الفعاليات الإشعاعية لليُورَانْيُوم... ولَفنيَ كلّ شيء حيّ على وجه الأرض.

ويطلق علماء الكلام على هذا الاستدلال "بُرهان التمانع"، وهو يثبت أن الله واحد، ويستحيل وجود إلهين اثنين؛ فما من شيء تقوده يدان مختلفتان إلا فسد وإن بلغ في الصغر منتهاه كقيادة سفينة مثلًا، ولو أن لسيارة مِقودين وقادها سائقَان لاضطربت واصطدمت بغيرها نتيجة مثل هذه القيادة ولو كانت الطرق معبّدة ميسّرة، فالفساد هو مصير الكون لو أن إرادتين منفصلتين حرتين قامتا على إدارته وتنظيمه.

ونؤمن بأن قَدَرًا خفيًّا يسري في هذا الكون الهائل المنظم غاية التنظيم بدءًا من العالم الكبير "عالم المجرات"، فالمتوسط "عالم الإنسان"، فالصغير "عالم الذرات"؛ ولا بد لهذا النظام والتناسق والتناغم بين هذه العوالم من خطة علمية، ثم قدرة وإرادة لإخراجه من مرحلة التخطيط إلى مرحلة التنفيذ، ثم رقابة مستمرة وسيطرة، وهذا كله لا بد له من واحد أحد لا يشاركه في إرادته أحد، فالإنسان يرفض أن يتدخل أحد في شؤونه الخاصة وفي عمله وفقًا لما يسمونه "قانون الخصوصية"، فأنَّى لمخلوق أن يُشرِكَ نفسَه مع الخالق سبحانه في تنظيم الأمور المركّبة والمعقدة لهذا الكون الهائل؟!

وهذا معنى قولنا: لو أن إرادتين مختلفتين اشتركتا في خلق هذا الكون لفسد، ونحن نرى أن الكون منظّم غاية التنظيم بلا اضطراب ولا فساد، إذًا فصاحبُه ومالكُه وخالقه واحد أحد.

والآن لنتناول الموضوع بمنظار الضمير:

إن الحوادث الجارية من حولنا تُبَرهن لنا في أعماقنا وفي الواقع كذلك أن لا حول لنا ولا قوّة إلا بالله، فأنا العاجز الفقير أدرك عجزي وفقري فأرفع يديّ متضرّعًا مُدركًا عجزي وفقري وكأني على خشبة مكسورة في خضمّ محيط هائج وأدعو: "يا رب! يا رب!" وأنا أشعر في أعماق قلبي بأن هناك من يسمَعني، ولن يسمعني إلا إذا كان سميعًا بصيرًا بكلِّ مكان وربًّا للعالمين، فيسمع ضراعتي ويسمع معها ضراعة نملة وحاجتها إليه ﷻ وابتغاءَها من فضله، فهو أقرب إلى النملة من نفسها؛ وتتبيّن هذه الحقيقة بأنه سبحانه يجيب دعاء من يدعونه جميعًا معًا في العالم كله، يقول رسول الله ﷺ: "**إِنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ خَرَجَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ يَسْتَسْقُونَ فَرَأَى نَمْلَةً قَائِمَةً رَافِعَةً إِحْدَى قَوَائِمِهَا تَسْتَسْقِي، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: ارْجِعُوا فَقَدْ سُقِيتُمْ إِنَّ هَذِهِ النَّمْلَةَ اسْتَسْقَتْ فَاسْتُجِيبَ لَهَا**"[1].

كل ما في هذا العالم يتوجه إلى الله تعالى ويطلب منه حاجته ويدعوه ويتضرع إليه، وهو سبحانه يجيب دعاءَهم جميعًا، ويكشف لنا هذه الحقيقة فيقول: ﴿**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ**﴾ (سُورَةُ النَّمْلِ: ٦٢/٢٧)، ثم أليست ضمائرنا تشهد بهذا أيضًا؟

إذًا فالله تعالى سميع بصير بخلقه جميعًا في كل مكان، يسمع أصواتهم، ويرى أحوالهم، ويغيثهم ويتجلى عليهم جميعًا برحمانيته ورحيميته؛ فهو عظيم جليل عزيز غنيٌّ عمَّا سواه، وهو قادر على فعل

(١) مصنف عبد الرزاق: ٩٥/٣؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٦٢/٦.

كلِّ شيء وَحْده، يستوي عنده خلْقُ الجنة وخلق الرّبيع، وأساس هذا كلّه عظمته وجلاله ووحدانيته، وهو سميع بصير بخلقه أينما كانوا، وهو ليس بجسم يَشْغَل حيّزًا في الفراغ أو في المكان، فهو قائم على أمر خلقه في كلّ مكان بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى إلا أنه مبرَّأ منزَّه عن الكمّ والكَيْف، وهذا تجلٍّ من تجليات أَحَديته وجماله ورحمانيّته ورحيميّته.

وإليكم هذا المثال: لو سُحِبَ ماء عيني ولم يعط لها الماء لَأُصِبْت بمرض جفاف العين، إذًا فهو يرى عيني كل حين؛ فيرطّبها ليحفظها من المرض، فلا بد من وجود من يهبني العين لتكون وسيلةً لأرى بها الأشياء وهو يرى عيني ويعلم ما تراه عيني لتتم كل هذه الأمور.

مثال آخر: يجب أن يكون هناك من يقوم بترطيب اللّقمة عند تناول الطعام لتُهضم، ويرسل الشفرات إلى معدتي ويحرك فكّي، ويرسل الغذاء إلى الخلايا المحتاجة بعدالة لتستمر حياتي، لذا نقول: "إن أسماء ربنا تتجلى علينا برحمانيته ورحيميته"، ولو لم يكن ربّنا سميعًا بصيرًا بنا أينما كنّا لجفّت اللقمة في فمي ولنزلت إلى المعدة وكأنها حجر صلد، ولَما توزّع الغذاء إلى الخلايا بعدالة، إذًا إنه سبحانه أقرب إلينا من أنفسنا، فهو بتجليات أسمائه الحسنى أقرب إلينا من حبل الوريد، ولكننا -بخصائصنا البشرية- بعيدون عنه بعدًا كبيرًا، فكيف نستطيع التوفيق بين هذين الأمرين؟

وهاكم المثال التالي: ما أقربَ الشمس منَّا وما أبعدنا عنها، وهي شمس واحدة، لكنها تلاطف رؤوسنا كل يوم بإشعاعاتها المختلفة الأطوال، وتنضج لنا الثمار على الأشجار، ثم إن حرارة الشمس وضياءها وألوانها بمنزلة صفات مختلفة لها، فلو كانت لحرارتها قدرة، ولضيائها علم، ولألوانها السَّبعة صفات كالسمع والبصر لَكانت الشمس أقرب إلينا من أنفسنا ولَأمضَت ما تريد فينا. نعم، الشمس جسم كثيف مادّي،

لكنّها تحتوي على الهيدْرُوجِين الذي يتحوّل دائمًا إلى الهيلْيُوم، وتنجم عن تحول ملايين الأطنان من الهيدروجين إلى الهيليوم طاقة كبيرة على شكل إشعاع وضوء يصل إلينا وإلى أماكن أخرى، والشمس أولًا وأخيرًا جسم ماديّ، أمَّا الله ﷻ فهو منزَّه عن المادة ومبرَّأ عنها، فالله تعالى ليس ضوءًا ولا إشعاعًا ولا ذَرّةً، بل هو خالق لهذه الموجودات، فليس كمثله شيء.

إن الله تعالى هو مُنوِّر النور، ومُصوّر النور، وخالق النور، فهذا النور منه سبحانه، فهو خالقه، وكل أنواع الأنوار والأضواء والحرارة والألوان بيده يصرّفها كيف يشاء، فإذا كانت هذه هي حال الشمس -وهي مِن خلقِه سبحانه- فلا شكّ أن الله تعالى الواحد منذ الأزل يكون شهيدًا بصيرًا بكلِّ شيء في كل مكان.

ثم إن الملائكة الكرام تكون في اللحظة نفسها في أماكن عدة، وكذا الجنّ، وكذلك يستطيع الشَّيطان الوسوسة لكثير من الناس في اللحظة نفسها رغم أنه شيطان واحد؛ فهو يستطيع نفث وَساوسه إلى كثيرين في اللحظة نفسها، أي يستطيع التأثير عليهم معًا.

فإذا كان لبعض مخلوقات الله تعالى -العاجزة- مثل هذه القابليات فلِمَ يُستبعد وجود الله بتجليات أسمائه في كل مكان وهو الحي القيوم الذي أوجد هذه المخلوقات؟

وجوب وجود اللَّه تعالى

سؤال: يُقال إن الله خلق كل شيء.. فمَن -حاشا لله- خلق الله؟

الجواب: كثيرًا ما يُطرح هذا السؤال، وأنا أَعد هذا السؤال علامةً ودليلًا من أدلة نبوة سيدنا محمد ﷺ. وأمام تحقق ما أخبر به من أخبار الغيب أنكس رأسي وأقول: "أشهد أن محمدًا رسول الله".

أجل، إنه رسول من الله كريم، إذ أخبر عن كل شيء سيحدث حتى يوم القيامة وكأنه جالس أمام شاشة تلفزيون ينقل ما يشاهده. وقد نطق بالحق في كل ما أخبر عنه. فالأحكام التي ذكرها والحوادث التي أخبر عنها وقال إنها ستقع في المستقبل حدثت فعلًا وكما أخبر عنها تمامًا. وهذا هو ضِمْنَ ما أخبر به. يقول ﷺ: "**لَنْ يَبْرح النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يَقُولُوا: هَذَا اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟**"[٢]

وعندما وجّه لي هذا السؤال قلت في نفسي "أشهد أن محمدًا رسول الله!" ما أصدق ما رأيتَ وما أصدق ما قلتَ! فما كان بالإمكان التعبير بشكل أفضل من هذا التعبير لِسفالة طراز تفكير هؤلاء وضحالة إدراك الذين تمردت أنفسهم وأنانيتهم وتفرعنت، فأسبغوا صفة الألوهية على الأسباب وحاولوا إيضاح كل شيء بها وضمن إطارها.

فإذا رجعنا إلى المسألة الأصلية قلنا إن هذا السؤال من الأسئلة التي يطرحها المنكرون، وكثيرًا ما تنسحق العقول الغضة تحت وَطْأَة مثل هذه الأسئلة، إذ لا تستطيع فهم معنى اللَّامُتَنَاهِي، ولا تستطيع ما في مسألة استمرار تسلسل الأسباب من خداع.

(٢) البخاري: الاعتصام، ٣؛ مسلم: الإيمان، ٢١٢.

لذا نراهم يترددون ويشُكّون، إذ يظنون أن الله أيضًا سبب مثل الأسباب الأخرى، لذا فهناك أيضًا سبب آخر له، أي هو أيضًا مُسبَّب، أي نتيجة. وهذا وهمٌ... وهمٌ يستند إلى عدم معرفة الخالق، لأن الله تعالى هو مسبِّب الأسباب ولا بداية لوجوده.

وقد قام علماء الكلام استنادًا إلى قواعد معينة بإثبات أن الأسباب لا يمكن أن تتسلسل هكذا إلى ما لَا نِهَايَة، وسعوْا لإثبات وجود مسبِّب الأسباب الذي هو الله تعالى. ومن المفيد تلخيص أفكارهم في هذا الصدد بمثال أو مثاليـن. يقول علماء الكلام: "إن القول بأن سلسلة الأسباب تستمر دون توقف تعبير عن الجهل بماهية الأسباب وغفلة عن الخالق". أجل، فليس ثمة احتمال لظهور الأسباب عن طريق سلسلة الأسباب المستمرة منذ الأزل، والاعتقاد باحتمال هذا الأمر انخداع. فمثلًا إن قلنا بأن اخضرار وجه الأرض بالنباتات مرتبط بوجود الهواء والماء والشمس، وأن وجود الهواء والماء والشمس مرتبط بوجود بعض الأجزاء المادية مثل الأوكسجين والهيدروجين والكاربون والنتروجين...إلخ، ووجود هذه الأجزاء المادية مرتبط بوجود جزيئات أصغر، وهذه الجزيئات الصغيرة مرتبطة بجزيئات أصغر منها...

إن الظن بأن من المحتمل أن يستمر هذا التسلسل إلى اللانِهَاية، وأن من المحتمل إيضاح ظهور الأشياء عن هذا الطريق مغالَطةٌ وانخداع، ولا سيما إذا علمنا أن هناك أضداد المادة وأن الميتافيزيقا تغلب الفيزياء، وإذا علمنا أن الأسباب بأجمعها بدءًا من السبب الأول وانتهاء بآخره تعمل ضمن اتساق وتلاؤم وبصيغ قوانين وكأنها موظف مستخدم يقوم بأداء وظيفته.

أجل، إن القول "إن هذا نتج عن هذا، وهذا عن ذاك، وذاك عن ذلك... إلخ"، مثل هذا القول لا يَحل أي مشكلة ولا أي مسألة، بل على العكس

يجعل المسألة مستحيلة الحل، لأن الظن بأن من الممكن أن يُعد هذا حلًّا يشبه الظن باحتمال استمرار سفسطة "البيضة من الدجاجة، والدجاجة من البيضة" إلى الأبد. وهذا الادعاء والظن سيبقى معلقًا ودون سند حتى نسند البيضة أو الدجاجة إلى الموجود الأزلي ذي القدرة المطلقة. ولكن ما إن تسندهم إلى الخالق الأزلي -الموجود بذاته- حتى تنحل المعضلة، لأنه سواء أُخلقت البيضة -التي هي خلية واحدة- أولًا، أم خُلقت الدجاجة أولًا وجُعلت لها قابلية إنتاج البيضة لإدامة نسلها.. سواء أكان هذا أم ذاك فالأمر سِيّان.

إذًا فتنحية هذا وتركه جانبًا وتكرار "هذا من ذاك، وذاك من تلك... "لا يؤدي بنا إلى أي نتيجة ولا نصل إلى أي وضوح، لأن كل جواب من هذا النمط يجلب معه استفهامات أكثر. مثلًا المطر مرتبط بالغيوم، والغيوم مرتبطة بالجزيئات الموجبة والسالبة، وهذه الجزيئات متعلقة بالتبخر، والتبخر مرتبط بوجود الماء وأخيرًا بالعناصر المكونة للماء.. وهكذا فبعد بضعة خطوات فقط ينتهي التسلسل ويقف. وحتى عندما يقف التسلسل في نقطة معينة يجد الإنسان نفسه في خضم فرضيات عديدة يحاول بها إشباع عقله "قد يكون كذا... أو كذا... أو كذا..."

وليس هذا إلَّا محاولة لتفسير العالم الذي نشاهد فيه النظام الدقيق والتلاؤم والتناغم المدهش بين أجزائه ونحدس ظهوره من يد الحكمة الباهرة.. إنها محاولة لتفسير هذا العالم وكل الأشياء بهذيان الأطفال. كما أنها تضليل لأفق العلم وهدفه وإبقاؤهما في ظلام دامس. علمًا بأنه لا بد لكل نتيجة من سبب، ومجرد تزايد الأسباب غير المنطقية وغير المعقولة وتسلسلها لا يجعلها معقولةً ولا يضفي عليها صفة التلاؤم مع المنطق، فمثل هذا الظن هذيان وهو توهم المستحيل ممكنًا.

والآن لنشرح هذا بمثال: لنفرض أنني جالس على كرسي من دون قائمتَيه الخلفيتَين. ولكي لا يسقط الكرسي فقد أُسنِدَ إلى كرسي مثله، وهذا الكرسي إلى كرسي آخر مثله... وهكذا إلى ما لا نهاية، أي بعدد لا يستطيع العقل تخيله ولا يسعه الزمان ولا المكان. ومع ذلك فإن هذه الكراسي إن لم تُسنَد إلى كرسي ثابت وذي قوائم أربعة فإنه لا فائدة من هذا التسلسل.

ومثال آخر: لنفرض وجود صفر أمامنا، فهذا الصفر إن لم يُضَف إلى رقم على يساره يبقى صفرًا ودون قيمة وإن رصصت كومة من الأصفار على جنبه، حتى وإن وضع (تريليون x تريليون) صفرًا. ولكن ما إن تضع على يساره رقمًا حتى يكتسب الصفر قيمةً حسب هذا الرقم. وهذا يعني أن أي شيء إن لم يكن له وجود مستقل وإن لم يكن قائمًا بذاته فإن أمثاله من الأشياء العاجزة لا تستطيع منحه الوجود ولا منحه أي سند أو عون، ذلك لأن اجتماع العاجزين بنفس العجز لا يزيدهم إلا عجزًا.

وحتى لو فرضنا المستحيل وقبلنا بتأثير الأسباب فإن القانون الفيزيائي القاضي بـ"تناسب العلة" يوجب وجود تناسب معقول بين السبب والنتيجة، لذا يجب مثلًا التفتيش عن أسباب معقولة وذات قوة وقدرة كافية تكون وراء ظواهر عديدة بدءًا من تحول الكرة الأرضية إلى بيئة ووسط صالح لظهور الحياة واستمرارها وانتهاءً بِوجود هذا الإنسان المفكر العاقل.

هذا علمًا بأن الوضع الحالي للكرة الأرضية أي سرعتها ومقدار بعدها عن الشمس وطبقتها الجوية ودوراتها الطبيعية والمقدار المحسوب لميل محورها ومقدار ونوع الغازات التي تشكل جوها، وطبقتها الترابية والنباتات التي تكسو هذه الطبقة، وبحارها والقوانين الخفية الجارية فيها،

والرياح والوظائف والمهام المختلفة التي تؤديها...إلخ، من آلاف بل مئات الآلاف من الحوادث الجارية بكل نظام واتساق وتناغم لا يمكن عزوها وإرجاعها إلى الأسباب العمياء والصماء أو إلى المصادفات العشوائية، فمثل هذا الأمر يجعل العقل وكأنه يناقض نفسه بنفسه.

والحقيقة أن علماء علم الكلام عندما حكموا عن طريق مفهوم "الدوْر والتسلسل" بنفي تأثير الأسباب وبإسنادها إلى مسبِّب الأسباب أي إلى الله تعالى، ذكروا أن كل شيء "ممكن الوجود" وأن كل الأسباب والعلل تستند إلى "واجب الوجود"، ففتحوا بذلك منافذ إلى التوحيد، غير أن من الممكن الوصول إلى هذه النتيجة عن طريق أسلم. أجل، ففي كل أثر من آثار الخالق ﷻ نرى ختمه وسكّته وآيته. لذا فليس هناك دليل واحد بل آلاف الأدلة على وجوده. فمنذ أن بدأت العلوم بمحاولة الكشف عن أسرار الكون، كان كل علم يشير بلسانه الخاص إلى وجوده ويعلن عنه بأجلى صيغة. وهناك كتب قيمة جدًّا كُتبتْ في هذا الموضوع.

أجل، لقد أُوجِد كل شيء بعد أن كان معدومًا، والله هو موجِدُ وخالقُ كل شيء، والله لكونه هو الخالق لم يُخلَق، إذ كل مخلوق شأنه أن يكون عاجزًا ومحتاجًا بينما وجود الله ذاتيٌّ لا حاجة له إلى أي أحد، فهو الغني المطلق الغِنى. كل شيء يستند إليه ويعتمد عليه. وكل لغز يبدو وكأنه غير قابل للحل يظهر ويتضح به، فهو الخالق وهو الموجِد وهو القائم على استمرار الوجود، هو الأول وهو الآخر. فكيف يفتَّش عن مسبِّب له؟!

ولنوضح هذا بمثال أو مثالين: مثلًا إن رجليّ تحملان جسدي والأرض تحمل رجليّ. والآن وبعد أن توصلت إلى معرفة مثل هذا الحامل المعقول لا أحتاج إلى البحث عن أسباب جديدة خارجه. ومثلًا لنأخذ العربة الأخيرة من عربات قطار.. هذه العربة تجرّها العربة

التـي أمامهـا، وهذه تجرها التي أمامها... وهكـذا حتى نصل إلى القاطرة، أي المحرك الذي يجر القطار. وعندما نصل إلى المحرك نقول: ''إن هذا المحرك يحرك نفسه بنفسه''. هذه أمثلة مما خلق الله، يمكن للمخدوعين العثور على سـبب وراءها، لكنهم مهما انتقلوا من سـبب إلى آخر، فإنهم سـيصلون حتمًا إلى سـبب لا يسـتطيعون التقدم بعده إلى سبب آخر. عند ذلك سنواجههم ونسألهم ''ها هي نهاية الأسباب! فماذا بعد؟''

هناك مسألة أخرى تعكر صفو بعض العقول وهي أن التفكير المحدود لبني الإنسـان لا يسـتطيع فهم مفهوم الأزل وإدراكه، لذا نراه يضفي صفة الأزلية على المادة، ثم يرى احتمال وقوع أشـياء غير معقولة في الماضي السحيق الذي لا تستطيع الأرقام إيضاحه.

قبـل كل شـيء إن الأزل ليـس بدايـة الزمـان الماضـي، إنـه لا زمان. فلـو بلغـت الأزمان (كاتريليون x كاتريليون) سـنة لما بلـغ عشـر معشـار الأزل. بينما يعرف الجميـع تقريبًا الآن بأن المادة التي هي أساس تسلسل الأسـباب لهـا بدايـة معيّنة. فحـركات الإلكترونات، وأسـرار فيزيـاء نواة الـذرة، والعمليـات الغامضة التي تجري في الشـمس وتـؤدي إلى إطلاق الإشـعاعات، والقانـون الثانـي للديناميـكا الحراريـة (الثرموديناميـك)، وهو القانون الشامل للكون يشير إلى أن لكل شيء نهاية. كل هذه الأمور أدلة بضخامة النجوم وبوضوح وبريق الشموس، وكل شيء له نهاية لا بد أن تكون له بداية، وهذا أمر واضح لا يحتاج إلى أي نقاش.

لذا فإن أي شـيء أسـبغت عليه نعمة الوجود يشـير إلى الخالق ويدل عليه، كذلك فإن انطفاء وجود الأشـياء وفناءه يدل على أن الخالق لا أوّل لـه ولا آخـر. لأنه من الطبيعي أن ما كانت لـه بداية كانت له نهاية، كذلك مـن الضـروري أن مـا لـم تكن لـه بداية لـم تكن لـه نهاية. لـذا فإننا نرى

أن المـادة -وكل شـيء نبـع منها- إن كان موجـودًا اليوم فهو غير موجود غـدًا. ولكـن سـير الكون البطـيء نحـو الفناء، والفنـاء التدريجـي للمادة قد يخدع الكثيرين. ولكن مصير هذه العوالم -التي نمت وتوسعت ضمن عهـود طويلـة- هـو إلى الفنـاء. أجل، إن المـادة مـع أنها موجـودة اليوم، فإنهـا -على ضوء بعض الأبحاث- متوجهة دون شـك نحو التغير. والآن لنوضح هذا بمثال قطار أيضًا:

لنفـرض أن قطـارًا توجـه من مدينـة "إِزْمِير" نحـو "طُرْغُتْلُـو" التي تبعـد عنهـا ٥٥ كـم. ولنفرض أن سـرعة القطار كانت ٥٥ كم/سـاعة عند بدايـة الرحلـة، أي إن الرحلة ستسـتغرق سـاعة واحدة. سـار القطار بهذه السرعة نصف ساعة ثم هبطت سرعته إلى النصف بعد أن بقي من المسافة ٢٧,٥ كم، أي إنه سيقطـع نصف هذه المسافة في نصف ساعة، ولنفرض أن القطار كلما سـار نصف سـاعة أنقص سـرعته إلى النصف... وهكذا، مثـل هـذا القطار يبدو أنـه لن يصل إلى مدينـة "طُرْغُتْلُو" أبـدًا. ومـع أن القطار سيصل حتمًا إلى هذه المدينة إلَّا أن راكب القطار قد يتصور أنه لن يصل إلى المدينة أبدًا بهذه السرعة المتناقصة.

وشـبيه بهذا فإن المادة سـائرة نحو التحلل والتجزؤ. وسـيتحقق هذا وإن كان بعد عدة ملايين من السـنين، أي كل شـيء فانٍ سـوى الموجودِ سبحانه وتعالى الذي لا يستند وجوده إلى شيء آخر غيره.

والخلاصـة أن الله موجـود وهو خالق كل شـيء. وتوهـم أنه مخلوق تفكير سـاذج يسـند إلى الخالق صفة المخلوق ولا يميز الفرق بين الخالق وبيـن المخلـوق. والملحـدون والمنكـرون الذيـن أبـرزوا هـذا التصـور والوهـم -الذي يجفل منه الإنسان ويرتجف- أرادوا الظهور بمظهر العقل وهـم لا يدرون أنهم سـقطوا في تناقض صارخ مـع العقل ومـع المنطق.

فمن يستطيع اليوم ادعاء أزلية المادة أو إنكار الألوهية؟! فمثل هذا الادعاء لم يعد غريبًا فحسب بل علامة على الجهل والتعصب.

ولكن مع أن بعض الماديين الذين لم يستطيعوا النفوذ إلى معنى الأشياء والحوادث لا يدركون الفناء والتحلل المقبلين على المادة ولا الفناء الذي تنتظره الذرة سيبقون -حتى يوم إدراكهم هذه الحقائق- وراء بياناتهم وادعاءاتهم هذه ليخدعوا بعض السذج البسطاء.

والله الذي أحاط بكل شيء علمًا هو أعلم بحقيقة الأمر.

الحكمة من خلق اللّه للكون

سؤال: لماذا خلق الله الكون؟ ولِم لَم يخلقه من قبل؟

الجواب: السؤال له شِقَّان: أوَّلهما لماذا خُلق الكون؟ وثانيهما لِمَ لم يُخلق من قبل؟

أوَّلًا: أُشير هنا إلى أننا نحن البشر نقيس كل شيء بمقاييسنا المحدودة، وعلى ذلك تتشكل أفكارنا ونبني تصوّراتنا وَفْقها، فالباعث عندنا ضرورة في كل أمر، ولا نعزم غالبًا على فعل أمرٍ ما إلا إذا اقتضته الضرورة، ومثل هذا الدافع النفسي يسوقنا إلى أن نقيس فعل الله على أفعالنا، لكن يجب أن نعتقد ونحن نطرح سؤالًا كهذا أن الله تعالى منزَّه عن أي نقص أو خلل.

يمكن تناول السؤال المذكور جدلًا فنقول: من الذي يزعجه خلق الكون؟ إنّ موارده متاحة بين أيدينا، فهل لكم أن تدلوني على إنسان لم ينشد السعادة في تلك الموارد مستغلًّا كل ما فيها... ينثر بذورًا ويلقحها ثم يجني ثمارها؟! من الناس مَن يتعجل في قراراته إذا ما ألمَّ به أمر، ويتذمّر لأنّه خُلِق، وقد يهم بالانتحار، بيد أن هؤلاء قلة لا أثر لهم، أما سواد الناس فإنّهم لا يتحسّرون، بل إنّ قلوبهم لتفيض حمدًا وشكرًا على نعمة الحياة والوجود والإنسانيّة، مم يشكو الإنسان؟ من حمله في الأحضان طفلًا، أم من سعادته الغامرة فتوّةً وشبابًا، أم من اشتغاله بالبنين والحفدة كهلًا؟! ... وأخصّ هنا من يؤمنون بالآخرة فإنهم لو قدَروا أن يتعاهدوا بذور السعادة السرمديّة التي تضمن السعادة المطلقة لغمرهم سرورًا عثورُهم على مفاتيح سريّة لمنافذ السعادة.

أجـل، إن ضمائرنـا لَتستشـعر تلـك النعـم كلّهـا وإن قلوبنـا لَتفيـض شـكرًا وحمـدًا لله الـذي أبدع الكـون وأنعم علينـا بالوجود. وبوسـعنا أن نوضّـح المسـألة بما نشـاهده فنقول: إن هذا الكون يتبدى لنا وكأنه مشـهر أو عـرض رسـمي لمناظر لا تنتهي زُيّنـت بآثار فنّية ملوّنـة كبيرة وصغيرة حيّة وجامدة، وأُعدّت بصورة جذابة تدفعنا جميعًا إلى مشـاهدتها والتأمّل فيها؛ هذه المناظر الخلابة وما فيها من عظمة وزينة رائعة تدلنا على صنعة فـي أحداث تجري جريان السـيل وعلى يد لطيفـة قادرة مهيمنة على تلك الصنعة، فمن عدسة هذه الأفعال نشاهد الأسماء الإلهية.. ونتابـع ما يصدر عنهـا مـن ومضـات وبارقات ولمعات وإشـارات كما يتتبـع العاشـق حِبَّه بلهفـة الوصال، وعندئذ نجد أنفسـنا بين يدي دائـرة الصفات الإلهية التي لا نعـرف ماهيتهـا تمامًا، فتصيبنا الحيـرة والتعب ويعترينا شـوق عظيم.. ونتابـع "شؤوناته الذاتية" من نوافذ تُفتح إلى القلب فيعترينا الذهول...

ولا يـزال هـذا البحث جاريًـا صعودًا وعروجًا في فضـاء رحبٍ جدًّا، مبـدؤه الحـوادث والأشـياء ومنتهاه العلاقـة بين الكون والإنسـان، ومنها إلى العلاقة بين الإنسان ودائرة أسماء الله وصفاته.

والآن ونحـن نتحدّث عـن حكمة الخالق ﷻ من خلق الكون لنتتبّعْ قليـلًا هـذا الاكتشـاف والإدراك بقـدر فهـم العـوامّ: مثـلًا -ولله المثـل الأعلـى- لنتأمـل فنّانًا عنده عدّة مهارات منها حسـن الخـط، إنَّه بمهارته هـذه يتجاوز حـدود الموضوعية ويتمـرد على الذاتية، ويعلن عن نفسـه بقدرته على الإنشاء.

ولنفتـرض أن هـذا الفنان نحّات خارق للعـادة أيضًا، فبضـع ضربات مـن مطرقتـه تنفـخ الروح فـي أعتى الحجـارة وأقسـاها، ومهارتـه تتبدّى بما يرسـمه نحتًا في بسـمات الشـفاه وغمزات الوجنات، دعوا هذا الفنان

الذي عجب الناس لحسن خطه.. دعوه يستمتع بما كُتِب عنه من مدح وثناء لمهارته في النحت ولنبحث نحن عن مهارة ثالثة له:

لنفترض أن فناننا العبقري نجّار ماهر أيضًا... نجار طَفرة يضفي على الجوز روح الفنّ، ويهب شجر الزان الخلود، ويبعث شجر الأبنوس بروح الفن، دعوا ذلك النجار تصفق له أيادٍ خبيرة بالفن والفنانين، ولننظر إلى مهارة أخرى من مهاراته:

مثلًا لنفترض أنه هو هو رسّام مبدع يظهر أجمل النقوش وأروع التشكيلات حيثما مرَّت فرشته ويرسم بحركة أو حركتين من يده ما يذهل العقل... وبوسعنا أن نضيف فنونًا أخرى كثيرة ليضيء كل فنّ جديد نضيفه جانبًا آخر لدى فناننا العبقريّ وييسّر لنا التعرّف عليه من خلال ذلك الجانب.

وكما يتعذر علينا الآن معرفة فنّانٍ كهذا دون أن يُظهر لنا مهاراته لا يمكننا أيضًا القول بأنّنا نعرفه معرفةً كاملة دون أن يُظهر لنا بعض فنونه؛ ومن هنا فكلّ ذي ملكة يريد أن يُظهر ما لديه من مهارات خفية ويريد أن يُلبِس ما له وجود علمي وجودًا خاريجيًّا. فالبذرة تنتعش فيها العقدة الحياتية، والماء الدّافق تتنازع الحيوانات المنويّة فيه الحياة رَغَبًا ولهَفًا، وحبيبات الرطوبة تتجشم آلاف الصعاب لتغدو أمطارًا... فهل ثَمّة ما يحدوها إلى هذا كلّه سوى حبّ الإراءة والظهور؟

هذا كله تعبير عما فينا وفي كل الكائنات من نقص وضعف ورغبة لا تُقاوَم، لأننا مجرد ظلال لأصل، أما الصانع الأصلي والمُبْدِع الحقيقي فمنزَّه مطلقًا عن عوارض النقص، ولا بد ألا ننسى أن تجلي الظلّ ليست كتجلي الأصل.

أجل، إن ما يملأ الكون أجمع من تموجات في شتى أنواعها وألوانها ليدلّنا على ألف اسم واسم من أسماء الله تعالى، وكلّ اسم منها يكشف لنا -كما النور الساطع على أثر فنّيّ- عن صفات ذاتٍ عليم حكيم، ويوقظ قلوبنا برسائل عن ذلك الذات الذي لا تدركه الأبصار.

ويريد هذا المبدع العظيم أن يعرّفنا بنفسه معرفةً وافية، فيجلِّي لنا آلاف الأسماء والصفات، فمثلًا يدلّنا على جماله من خلال أنواع الجمال كلّها، وعلى إرادته وقوته من خلال ما في الكون من نظام وانتظام بديع، وعلى رحمته وشفقته بما يهبه لنا حتى أخفى ما ترغب فيه قلوبُنا.

وبتعبير آخر يريد هذا المبدع العظيم أن يُظهر جلوة قدرته وإرادته فيعرض الحقائق العلمية في علمه الواسع بإلباسها وجودًا خارجيًّا؛ ويريد أن يوقظ مشاعر الحيرة والإعجاب والتقدير فيعرض أروع آثار صنعته على أولي الألباب ليشاهدوها بمنشور إدراكهم.

كما أن فنّانًا ماهرًا في آلاف الفنون يُظهر مهاراته بإظهار آثاره، فكذلك صاحب هذا الكون أنشأ قصر الكون الرائع هذا ليُظهر لنا بديع صنعته.

ثانيًا: ''لِم لَم يخلق الله الكونَ من قبل؟''

نقول بدايةً: ما معنى ''من قبل''؟ إن كنت تعني ''لماذا خُلق قبل كذا وكذا من الزمان ولم يُخلق قبل أكثر من ذلك؟'' فسترِد عليك سلسلة أسئلةٍ لا تنتهي حول مسلسل ''القبلية'' المقيدة بزمن، فيقال مثلًا: إن كان خلَقه قبل تريليون سنة فلِمَ لَمْ يخلقه قبل مائة تريليون سنة؟ ولا أعرف سببًا منطقيًّا لسؤال أو اعتراض من هذا الضرب.

فـإن كنـا نعني قِدَم العالَـم بقولنا "**لِم لَم يخلـق الله الكون من قبل؟**" أي لا يحـدُّه زمـان، فجوابـه أن القِـدم من صفات الله الخاصّة به سـبحانه فهـو مـن لـوازم ذاته، وهـو صفةٌ ذاتيّـة، أي إن هـذه الصفة له لا لسـواه، فكل ما سواه حادث.

نعـم، علم الله سـبحانه بوجـود الكائنات قديـم، فالكائنـات موجودة في علمه منذ أن كانت عَدَمًا، سواء أعبّرنا عن هذه "الموجودات العلمية" بمصطلح أهل التصوف "الأعيان الثابتة، وظلال الأنوار" أم بعبارة أخرى، فمـن الخطأ إسـناد القـدم لهـذه الكائنات، وبحث مسـألة كهـذه لا يعدو أن يكون من سوء الأدب مـع الله.

لنـا أن نبحـث في الموجـودات التي لها "وجود خارجي" بمقاييسـنا المحـدودة، لكن الحديـث عن الحقائق التي هي غيب بالنسـبة لنا صفاقة علـى الأقـلّ. ففـي الحديـث الشـريف: "**مَـا السَّـمَاوَاتُ السَـبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ بِأَرْضٍ فَـلَاةٍ، وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ تِلْكَ الفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الحَلْقَـةِ**"[٣] أنـى للإنسـان إذًا أن يعـرف صاحب هذا العـرش العظيم حق معرفته فيعبّر عن أسرار ربوبيته!..

أجل، هناك أشـياء كثيرة غدت مرآة لشـؤونه الخاصة وذاته سـبحانه، علمًـا أنـه يَعلـم ذاتَه قبل خلـق الكائنات كمـا يَعلم شـؤونه دون أن يفتقر إلى شيء، أجل، إنه يعلم شؤونه الذاتية في أسمائه، ويعلم ذاته حقّ العلم بتجلي أسمائه في عالم الأسماء والأثير والجسيمات، وفي الذرات وكبرى المركبات، ثم يجليها لأولي الألباب.

فـي كل لحظـة هو عالم بهذه العوالم كلها علمًا مختلفًا في نظرنا عمّا كان قبله، أمَّا في الحقيقة فلا تغيُّر ولا تبدّل في ذاته ولا في صفاته سبحانه، وأحسن العلامة إبراهيم حقي إذ يقول:

(٣) ابن أبي شيبة: العرش وما روي فيه، رقم الحديث: ٥٨؛ صحيح ابن حبان: ٢/٧٧؛ تفسير الطبري، ٣/ ٧٧.

''تعالى ربنا عن أن يأكل أو يشرب أو يدور به الزمان،
تنزَّه سبحانه عن التبدل والتغير والأشكال والألوان،
وتلك هي الصفات السلبية له فهو عظيم الشان''.

إننا لنرى ما خلق وأظهر اليوم من آثار صنعته، بيد أنَّنا لا يمكن أن نعلم ماذا كنّا قبلُ وإلامَ سنصير غدًا.

ولا طاقة لنا بالوقوف على ماهية الوجود العلمي والأعيان الثابتة وعالم الأرواح، ولا نعرف أيضًا أي نقطة مظلمة في الوجود صاغتها السُدم الحلزونيّة شعرًا ولحّنته أنغامًا وكشف عنها الحجاب. أجل، فكما لا يتسنى لنا معرفة هذا كلِّه فإننا نقف أيضًا أمام السرّ العظيم للحياة الآخرة ونقول: ''ما عرفناك وشؤونك حقَّ المعرفة يا معروف''.

فإن كنتُ أسهبت قليلًا في هذه المسألة فما ذاك إلا لأنّ مثل هذا النوع من المسائل يستدعي مزيدًا من الحيطة والحذر، فإن أخطأت في شيء فأسأله سبحانه العفو والغفران، والله أعلم بالصواب.

حكمة خلق الله للناس على صُوَر شتى

سؤال: لِمَ لَمْ يخلق الله تعالى الناس سواسية، وكان فيهم الأعمى والأعرج؟

الجواب: ١- مالكُ الملك سبحانه يتصرف في ملكه ما يشاء، لا يُسأل عما يفعل أو يَخلق، فهو الذي خلق ذرات جسمك وسوّاك وكرّمك بهويتك الإنسانية؛ وهب لك هذا كلّه، ولا شيء سبَقَ منكَ إليه ليكون لك حقّ عليه.

فلو أنك أعطيتَه شيئًا مقابل ما وُهب لك لربما كان لك أن تسأل وتقول: "لماذا خلقني بعين ورجل لا باثنتين؟" ولكن شيئًا من ذلك لم يكن لتسند الجور إليه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، فالجور إنما يكون إذا مُنِع صاحب الحقّ حقَّه، فهل لك عليه من حق لتزعم أنه جار عليك؟

بل إنك لم تكن شيئًا فخلقك فسوّاك بشرًا سويًّا ووهبك نعمة الوجود... والمخلوقات كلها دونك، فلو تأملتها لعلمتَ أنك حظيتَ بنِعَم لا تحصى.

٢- ربما يبتليك برِجْلك، لِيُبدِلك بما هو أبقى لآخرتك، يبتليك برجلك ليشعرك بعجزك وفقرك وضعفك، ويوقظ مشاعرك ويوجّه قلبك إليه سبحانه، وهذا يعني أنه يأخذ منك القليل ويهب لك الكثير، فلا جرم أن هذا من اللطف الخفيّ بك، ومَثَلُك كمثل المجاهد يُقتل فيكافَأ بالجنة،

سقط شهيدًا ليرقى في المحكمة الإلهية الكبرى إلى مقام يغبطه عليه الصدّيقون والصالحون، ويقول من يراه: ''يا ليتني أوتيتُ مثل ما أوتي من الشهادة''؛ فبناءً عليه إن هذا الشخص لو مُزِّق إرَبًا إرَبًا لما خَسِرَ، بل ويُعطَى له أضعاف ما أُخذ منه.

نجد كثيرًا من المعاقين حملتهم إعاقاتهم على مزيد من التوجه إلى الله ﷻ، بينما أودى اليأس والامتعاض والتشاؤم والشعور بالنقص بفئة قليلة إلى الانحراف عن جادّة الصواب، فلا يشغلَن أحدنا نفسه بتلك القلة ولا بما مُنيَت به. والأصل إثارة الشوق في روح الإنسان نحو السعادة الأبدية. فإذا حمَلَت تلك العاهات ذويها على التوجّه إلى الحق تعالى، واعتبَر بهم الآخرون فرقَوْا صُعُدًا، فهذا هو مقتضى حكمة الله في الأمر، إنه عليم حكيم، فلا عبث، بل كل شيء عنده بمقدارٍ وعلم وحكمة.

تصرف اللَّه في خلقه

سؤال: يقول الله تعالى في آية: ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢١٣/٢)، **ألا يكون الله تعالى بهذا منحازًا -حاشا لله- إلى قِسم من عباده؟**

الجواب: نقول أولًا: إن الله تعالى إن انحاز إلى قِسم من عباده فليس من حق أحد أن يقول له "لماذا فعلت هذا؟" لأن الله تعالى هو مالك الملك وهو المتصرف فينا وفي كل شيء، ولا يملك أحد الحق في أي ادعاء أو أي اعتراض عليه ﷻ. فهو مالك كل شيء والمتصرف في كل شيء حسبما يشاء. لذا فعندما يوجَّه سؤال متعلق به سبحانه، فيجب أن يكون السؤال في غاية الأدب وفي غاية الاحترام. فالكل في قبضة تصرفه وهو مالك ومليك كل الملك. وليس من حق أحد توجيه أي سؤال بهذا الأسلوب، لأنه يكون منافيًا للأدب الواجب تجاهه تعالى.

ولكن يمكن أن يُقال: "إن كان الله تعالى يوجهني إلى الهداية أو إلى الضلالة، إذًا فعلى أيّ أساس وعلى أي مبدإ أو حكمة يؤاخذني؟ ذلك لأنه هو الحاكم المطْلق فما حِكمته يا تُرى في هذا الأمر؟"

أجل، إن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء. فقد ذُكر هذا الأمر في مواضع مختلفة وبشكل متكرر في القرآن الكريم[٤]. فالمشيئة الإلهية

(٤) انظر: سُورَة الأَعْرَافِ: ١٧٦/٧؛ سُورَة الْكَهْفِ: ١٧/١٨؛ سُورَة الزُّمَرِ: ٣٧/٣٩.

هي الأساس، والذي يجب الانتباه إليه في هذا الخصوص هو أن الهداية والضلالة من خلق الله تعالى، ولكن السبب يعود إلى مباشرة العبد. غير أن مباشرة العبد ضعيفة إلى درجة يمكن أن لا يُعتدّ بها، لذا يُرجع كل شيء إلى الله خالقِ جميع الأكوان ﷻ. لنوضح هذا بمثال:

إننا نقوم بأعمال معيّنة كالشرب وتناول الطعام. ونتيجة لهذا الأكل والشرب تدخل بروتينات وفيتامينات ومعادن مختلفة إلى أجسادنا وتأخذ أماكنها وتجري تأثيراتها وتوفي مهمتها. وهذه المسائل قائمة على أسس حساسة بحيث إن قيام الإنسان بوضع اللقمة في فمه لا يكفي لتحقيقها. وحتى لو فرضنا أنه يكفي، فإن مجرد وضع اللقمة في الفم يحتاج إلى قوة في اليد ودراية في الدماغ، وكل هذا من الله تعالى.

والإنسان ما إن يضع اللقمة في فمه حتى يثير الله الغدد اللعابية فيترطب الفم، وما إن يترطب الطعام في الفم حتى تُعطى الإشارة إلى الدماغ الذي يقوم بإرسال الشفرات إلى المعدة: "انتبهي! عليكِ بإفراز العصارات اللازمة، لأن النوع الفلاني من الطعام في طريقه إليكِ". وهنا تستعد المعدة بكل غددها وبكل خدماتها وتبدأ بالعمل. وحتى هذا الجزء من العملية لو قام عقل الإنسان بحسابه والتفكير به لَمَا استطاع إلا تناول جزء منه، وقد يخطئ حتى في تناول هذا الجزء الصغير.

تقوم المعدة بالوظائف العائدة لها فتذيب ما تستطيع إذابته كالنشا والكلوكوز. ولا ينتهي الأمر هنا، فعندما يكون الطعام في طريقه إلى الأمعاء تُرسَل شفرة: "الأطعمة التالية في طريقها إليك" أي الأنواع الصلبة التي لا يمكن هضمها إلا بتدخل الأحمضة. ولا دخل للإنسان في المرحلة التالية أيضًا. ثم تذهب المواد السليلوزية إلى الأمعاء

التي تبدأ بالفعالية، فإذا كان قسم من هذه المواد -مثل غلاف التفاح- لا يمكن هضمه لعدم وجود أنزيم يُذيبه طُرح خارج الجسم. كل هذه الأمور تجري بدقّة تامة ونتيجة شفرات التخابر المتبادلة حول ما يمكن أو لا يمكن إذابته وهضمه في المعدة، ثم يأتي دور الكبد التي تقوم بإيفاء المئات من الوظائف الملقاة على عاتقها.

فكما ترون فإن دخول لقمة واحدة إلى جسم الإنسان يستتبع ويستلزم حدوث آلاف من العلميات لكي تنقلب إلى شيء مفيد للجسم، ولا دخل للإنسان في أي عملية من هذه العمليات العديدة. فإذا قام إنسانٌ وقال: "لقد تناولت لقمة وقمت بخزن الحديد والفحم في جسدي، وإرسال إلى كل خلية ما تحتاجه منها. فمن احتاج إلى الفيتامينات أرسلت له تلك الفيتامينات، ومن احتاج إلى بروتينات أرسلت له البروتينات، كما قمت بتعيير السعرات ودرجات الحرارة وهيأت كل شيء، وسقت لكل شيءٍ ما يعينه على البدء بنشاطه وفاعليته" إن قال مثل هذا الكلام أفلا يكون مدّعيًا الشرك أي المشاركة في أفعال الله تعالى وتصرفاته؟.

فالتفكير المناسب هكذا: "هناك يدٌ غَيبية تقوم بتحقيق كل هذه الفعاليات الدقيقة الحافلة بالأسرار. فما إن وضعتُ اللقمة في فمي حتى تبدأ سلسلة من الأشياء الغريبة بالحدوث. لذا فلا دخل لي في عملية هضم هذه اللقمة. فالله تعالى هو الذي خلق هذا العمل وخلق الهضم وما بعده". عندما نقول هذا القول لا نكون قد أسندنا عمل الإنسان إلى الله، بل أسندنا ما لله إليه سبحانه. فما يعود للإنسان في هذا الخصوص ليس إلَّا مباشرة ضئيلة جدًّا، لذا لا يملك حق إسناد هذا العمل إلى نفسه.

أما الهداية فهي مسألة مهمة جدًّا، وإرادة الإنسان في الحصول عليها والوصول إليها إرادة جزئية، وتتألف من إظهار اللياقة والاستحقاق لهذه الهداية. فمثلًا: كثيرًا ما أرغب في نقل جميع مشاعري وأحاسيسي بكل انشراح قلب إلى جماعة المستمعين، ولكن ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (سُورَةُ الإِنْسَانِ: ٣٠/٧٦). فلا أوفّق في هذا ولا أستطيع إلَّا نقل شيء ما على قدر الإمكان. وكم من مرة أردت نقل الأحكام الإلهية والأحكام القرآنية بكل إخلاص، فإذا بي أعجز عن هذا. وكم من مرة تمنيتُ أن أصلي صلاة خاشعة بحيث أنسى نفسي وأنقطع تمامًا عن هذا العالم في وجد واستغراق، فلا أوفَّق إلا بنسبة واحد من الألف. إذًا فلا يوجد في يدي -إن كنت مخلصًا- سوى رغبة مجردة، وما وراءها في يد الخالق. اللهم رحمتك نرجو، لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقلّ من ذلك، فنهلك.

ولو تأملنا مليًّا لرأينا أن الأذواق الإيمانية ولذائذها، والشوق إلى الجنة والرضا بكل ما جاء من عند الله، والشوق إليه ليست إلا مواهب إلهية يضعها الله تعالى في جوانح الإنسان، وكل ما يعمله الإنسان هو المباشرة فقط. لذا يعرَّف الإيمان بأنه شمعة يوقدها الله تعالى في روح الإنسان الذي يستعمل إرادته الجزئية في الحصول عليه. جُعلنا فداء لمن يوقد عندنا هذه الشمعة! أي إنك لا تملك في مثل هذا الموضوع الخطير سوى استعمال إرادتك الجزئية فكأنك تقوم فقط بلمس زرّ فإذا بحياتك كلها يغمرها النور. ويشبه هذا قيامك بالضغط على زرّ الكهرباء لثريّا تحوي آلاف المصابيح الكهربائية. أي إن مثل هذا التوجّه الصغير للإرادة الإنسانية الجزئية باتجاه الإيمان، ومثل هذا العمل الضئيل... يكون وسيلة لإيقاد نور الإيمان.

أجـل، نحـن مضطـرون إلى فهم هذه المسـألة على مثـال تناول لقمة الطعام ﴿**وَمَا تَشَـاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللهُ**﴾ (سُـورَةُ الإِنْسَـانِ: ٣٠/٧٦) و﴿**يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَـاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَـاءُ**﴾ (سُـورَةُ الْمُدَّثِّرِ: ٣١/٧٤). إذًا فلا توجد إرادة تعلو على إرادته، فهو يهدي من يشاء ويُضل من يشاء.

والخلاصـة أن معظـم الأمر يعود إليه تعالى، ونصيبنا من الأمر شـيء ضئيـل إلـى درجة أنه يمكـن إهماله، لذا فـإن الادعاء بـ"أن الأمر راجـع إلينا" يعد جرأةً غير مقبولة.

رؤية اللّه في عالم الشهادة

سؤال: يتساءل البعض لماذا لا نرى الله في هذه الحياة؟ كيف نجيب هؤلاء؟

الجواب: الرؤية مسألة إحاطة، فمثلًا هناك جراثيم في جسم الإنسان، وقد توجد ملايين من البكتيريا تحت سن واحدة، وهذه البكتيريا تستطيع بما أُوتيت من قابليات وإمكانيات نَخْرَ سن الإنسان وتخريبها. ولكن الإنسان لا يستطيع سماع صوتها أو ضجيجها كما لا يحس بها ولا بوجودها. كما أن هذه البكتيريا لا تستطيع رؤية الإنسان ولا الإحاطة به. ولكي تستطيع الإحاطة به عليها أن تكون في موضع مستقل وخارجي عنه، وتملك في الوقت نفسه عيونًا تلسكوبية. إذًا فعدم قدرتها على الإحاطة بالإنسان يمنعها من رؤيته، وهي لا تستطيع سوى رؤية ما موجود أمامها فقط. بعد هذا المثال من العالم الأصغر لنعط مثالًا من العالم الأكبر:

تخيل أنك جالس أمام تلسكوب كبير يستطيع رؤية أمكنة على بعد أربعة مليارات سنة ضوئية. ومع ذلك فمعرفتنا حول الكون وحول المكان تعد قطرة في بحر. قد نستطيع معرفة بعض النظريات غير الواضحة تمامًا حول المجال أو الساحة التي يغطيها ذلك التلسكوب وبعض المعلومات أيضًا، ونسعى انطلاقًا من هذه الفرضيات والمعلومات لنصل إلى فرضيات ومعلومات أخرى كذلك. ولكننا لا نستطيع الإحاطة الكاملة بالكون ولا بماهيته ولا بإدارته ولا بشكله العام ولا بمحتواه، لأننا مثلما لا نملك

إحاطة كاملة في العالم الأصغر، كذلك لا نملك مثل هذه الإحاطة التامة في العالم الأكبر.

ويتبين من هذا أنه على الرغم من امتلاكنا للميكروسكوب ولـ"أشعة أكس" فلا نحيط إحاطة شاملة بالعالم الأصغر، كذلك لا نملك مثل هذه الإحاطة الشاملة في العالم الأكبر. والآن لنفكر في الله تعالى، يقول الرسول ﷺ: "**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ**"(٥). وقال أبو ذر ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ**"(٦).

إذًا فتصور هذه العظمة الهائلة!! ونحن... نحن الذين نُعدّ بالنسبة لهذه الأكوان أجزاء ميكروسكوبية كيف نستطيع ادعاء إحاطتنا بالكون والمكان؟ بينما الأماكن كلها والأكوان كلها تعد أشياء ميكروسكوبية بالنسبة إلى عرشه تعالى الذي هو مجرد محل تنفيذ الإرادة والأوامر الإلهية... أليس هذا اشتغالًا بالعبث؟ فإذا كان الأمر هكذا فقس أنت درجة العبث في محاولة الإحاطة بالله تعالى.

لذا يذكر القرآن الكريم أنه ﴿**لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾ (سُورَةُ الأَنْعَامِ: ١٠٣/٦). أجل، لا تدركه ولا تحيط به لا الأبصار ولا البصائر. فالرؤية تقتضي الإحاطة... هو يدرك الأبصار ويحيط بعلمه بكل شيء... ولكن الأنظار والأبصار لا تدركه. لذا يجب معرفة هذا الأمر لكي تتوضح جوانب هذه المسألة.

من جانب آخر فإن النور حجاب لله ﷻ وستار. ونحن لا نستطيع حتى الإحاطة بالنور. وقد سأل الصحابة النبي ﷺ بعد عودته من

(٥) العظمة لأبي الشيخ الإصبهاني: ٥٨٧/٢؛ تفسير الطبري: ١٠/٣.

(٦) ابن أبي شيبة: العرش وما روي فيه، رقم الحديث: ٥٨؛ صحيح ابن حبان: ٧٧/٢؛ تفسير الطبري: ٣/ ٧٧.

المعراج: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فأجاب الرسول ﷺ حسب ما يرويه أبو ذر ﷺ: "**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ؟!**"(٧) وفي مناسبة أخرى قال ﷺ: "**رَأَيْتُ نُورًا**"(٨) بينما النور مخلوق والله تعالى هو منوّر النور ومشكِّله ومقوِّمه ومصوِّره. فالنور ليس الله بل مخلوق له، وهذا يوضحه حديث آخر: "**حِجَابُهُ النُّورُ**"(٩) أي هناك نور بينكم وبينه، وأنتم محاطون بالنور.

عندما نطرق مسائل متعلقة بالألوهية تتعمق أغوارها وتزداد صعوبة حتى يصعب حمل عبئها.

وفي النهاية نستطيع القول بأن الله تعالى لا تدركه الأبصار وأن حجابه النور. والآن لنتناول الموضوع من جانب ثالث. يقول العلامة إبراهيم حقي:

"لا نِدّ لربي ولا ضدّ،
منزَّه عن المثيل والشبيه،
منَزَّه عن الصورة،
هو مقدَّس... تعالى الله..."

أولًا لا يوجد له ضد، وهذا شيء مهم جدًّا. فلكي يمكن رؤية شيء يجب أن يكون له ضد. أنت تشاهد النور لوجود ضد له، وهو الظلام. كذلك تستطيع إبداء رأيك حول بعض الأطوال فتقول هذا متر، وهذا ثلاثة أمتار.. ذلك لوجود أضداد لها. لذا يمكن وضعه في ترتيب. ليس الله مثل النور الذي تشاهده لوجود ضد له وهو الظلام، إذ لا ضد له ولا ند.

ولنتناول الموضوع من زاوية الفيزياء. فما نسبة ما يستطيع الإنسان رؤيته من هذا الكون المبسوط أمام ناظريه يا ترى؟ أجل، هل تستطيعون ذكر نسبة ما تستطيعون رؤيته من الأشياء؟ لنفرض أن عدد الأشياء

(٧) مسلم: الإيمان، ٢٩١.
(٨) مسلم: الإيمان، ٢٩٢؛ المعجم الأوسط للطبراني: ١٧٠/٨.
(٩) مسلم: الإيمان، ٧٩.

المعروضة في معرض الكون يبلغ (مليار x مليار) شيء لكي نشاهد عظمة الخالق ونقف تجاهها بكل تبجيل وتوقير، غير أن نظرنا لا يستطيع إلَّا رؤية خمسة في المليون فقط من هذه الأشياء. أما الباقي فلا نراه ولا نعرفه. أجل، فنحن لا نرى سوى الموجات الضوئية التي لها طول وتردد معينان. إذًا فتأمل مدى تهافت سؤال البعض "لماذا لا أرى الله؟" يسأل هذا وهو لا يعلم بأنه لا يستطيع رؤية سوى خمسة في المليون فقط من هذا الكون.. ثم هو بعد كل هذا يظن أن الله تعالى يمكن أن يكون من المرئيات، وهذا تفكير سطحي.

ويوم القيامة يراه من أجهد فكره في الدنيا أمام الآيات الكونية، فيراه سلطان الأنبياء محمد ﷺ وسائر الأنبياء والمرسلين. أما الآخرون فيرونه كلٌّ حسب مرتبته. ويعد هذا الأمر تشويقًا كبيرًا وحضًّا ودعوةً للتفكر والتأمل. فالذين يريدون الحصول على الدرجات العليا في الآخرة عليهم أن يجددوا قلوبهم وأفكارهم، وبتعبير أصح عليهم أن يكونوا في هذه الدنيا أصحاب همّة عالية وروح وفكر يليق بحظوة رؤية الله تعالى يوم القيامة، أي ألَّا يرحلوا من هذه الدنيا بزاد قليل، طبعًا كل حسب استعداده وقابليته.

وهناك قول يتردد على ألسنة الناس على أنه حديث قدسي -رغم أن العلماء يضعّفونه ويقول بعضهم إنه موضوع-: "**مَا وَسِعَنِي سَمَائِي وَلَا أَرْضِي وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي المُؤْمِنِ**"(١٠).

إذًا فما أعظم منة ونعمة هذا الذات المقدس الذي لا يعد كل الأكوان ذرة أمام عظمته... ما أعظم نعمته على كل مؤمن عندما تجلى على قلبه كنزًا وساقه إلى الاطمئنان والسكينة.

وأخيرًا نقول: الله أعلم بالصواب.

(١٠) كشف الخفاء للعجلوني: ٢/٢٥٥؛ وانظر لما روي في معنى قريب منه: مسند الشاميين للطبراني: ٢/١٩.